فوائد من حياة

الإمام النووي

بقلم الشيخ / أحمد الجوهري

بسم الله الرحمن الرحيم

أصحب هذا الكتاب المبارك، وأكتب فوائده وما يسنح لي من خواطر أثناء ذلك في قناة تليجرام، بمشيئة الله تعالى، وربما ضممت إليه أشياء من غيره، مثل:

- المنهل العذب الروي، للسخاوي.

- والمنهاج السوي، للسيوطي.

- والترجمات المجملة المختصرة في كتب الأئمة وسادات العلماء ممن ترجموا هذا الجبل الأشم، مثل: ابن كثير، والذهبي، والسبكي رضي الله عنهم أجمعين.

الشيخ أحمد الجوهري

فوائد من حياة الإمام النووي

هنا نقبس الفوائد الفريدة من حياة **الإمام النووي** - عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة - في العلم والعمل والدعوة.

لعلنا نكتب هنا فائدة تحمل همة على السعي في العلم، أو قلبًا على الجد في العمل، أو بدنًا على الحركة للدين.

همة وقلب وبدن الكاتب والقارئ جميعًا.

أفرد **النووي** بترجمة مستقلة: ابن العطار، والسخاوي، والسيوطي، واللخمي، وابن إمام الكاملية، وأبو الفضل النويري، والبعلي، والسحيمي، ومن المعاصرين: الدقر، وعلي الطنطاوي، ومحمود حمدان، وشحادة العمري، وأحمد الحداد، ويعقوب يغيت، وحميد الداودي.

فهؤلاء خمسة عشر..

- ثمانية من القدماء، وسبعة من المعاصرين.

- ذكرهم وذكر كتبهم وبعض التفاصيل: الشيخ مشهور في مقدمة تحقيق كتاب **الحافظ ابن العطار.**

أما عن ترجمته في كتب التراجم والسير ومقدمات الكتب وغيرها فحدث عن عددهم ولا حرج.

ينبغي أن تكون النية في قراءة مثل هذه الكتب السير والتراجم والأعلام -: التعرف على العلماء الصالحين وسيرهم والاقتداء بهم في العلم والعمل، وهي نافعة للقلب والعقل معًا، كما هو محسوس وذكر هذا عن غير واحد من أئمة العلم.

ابدأ حياتك العلمية والعملية بالقرآن.. يكن نورًا وبركة وفتحًا عليك وعلى أهلك، اجعله في فاتحة أمرك - احفظ القرآن في أول اشتغالك بالعلم - واجعله في فاتحة يومك - اقرأ وردك قبل أن تبدأ اليوم الدراسي والطلب، واربط به حياتك وعلومك.. تفلح وتنجح وتربح.

تدبرت تراجم العلماء ممن خلوا ومن بقي فوجدتهم في طلب العلم على ضربين: قوم اصطنعهم الله فقادهم إلى هذا الأمر، وقوم طلبوه واجتهدوا في أسباب تحصيله فوفقهم الله تعالى له.

ومن الصنف الأول - فيما يظهر لي - النووي رحمه الله تعالى -.

ليس للعلم سنٌّ معينة يطلب فيها فإذا فاتت فات التعلم - وإن كان الطلب في الصغر أولى وأفضل وأرسخ -، لكن من فاته التعلم صغيرًا فطلبه كبيرًا واجتهد بحق.. أدرك منه حظًّا وافرًا واستطاع بلوغ هدفه، وربما سبق من تقدمه، وقد طلب العلم في الكبر فحول من المتقدمين والمتأخرين، ومن المثبّطات قولهم: التعليم في الكبر كالنقش على الماء!

العلم يحتاج إلى تعب ونصب، ولا ينال - كما قالوا - براحة الجسد، بقي النووي رحمه الله تعالى سنتين لا يضع جنبه على الأرض: يكتفي بحصة الطعام الزهيدة التي تصرف لهم من المدرسة ويشتغل ليل نهار بالعلم: يحفظ، ويحضر، ويدرس ويكتب ويذاكر، ويشرح ويصحح على شيوخه ويلازمهم، ويعيد لزملائه، وهذه هي سبل الوصول في هذه الطريق، لا توجد خلطة سحرية ولا وصفة مريحة تربح الشيء الكثير في الوقت القصير.

من المعينات على طلب العلم:

١) حب الشيوخ للطالب وتشجيعهم له.

٢) محبة الطالب العلم وإقباله عليه وملازمته.

٣) التقليل من المخالطة.

٤) والتقليل من فضول الطعام والشراب والنوم والكلام وغيرها.

يا طالب العلم، خذ عن شيوخك العبادة -، مثل: الصلاة، الصيام، الزهد، الورع وغيرها، وما فيهم من خلق حسن، مثل: الصبر والعفة والشجاعة في الحق وغيرها، واستفد منهم المعينات على التحصيل، مثل: عدم إضاعة شيء من الأوقات.

استفد هذا منهم كما تستفيد منهم العلم، ومن لم يفدك هذا فيهم فدعه وابحث عن غيره ممن يفيدك ونقب وفتش وسوف يرزقك الله بهم وهؤلاء هم الغاية.. وكل الصيد في جوف الفرا.

كان **النووي** - رحمه الله تعالى - يقرأ اثني عشر درسًا في يومه، في فنون: الفقه وأصوله، والحديث وعلومه، واللغة وفروعها، وأصول الدين، وهذا شأن المنقطع للعلم، يملأ وقته كله به، وهذا شكر نعمة الله عليه أن فرغه للعلم وليس يُقبل منه غير ذلك، فإن كان بحيث يقدر على الجمع بين عدة فنون في التحصيل ولا يؤثر ذلك عليه فيها بالتداخل والاختلاط وغير ذلك.. انقطع لفن أو فنين أو ما يستطيعه منها وملأ به وقته كله كذلك.

ومن كان يشتغل بمصالحه ومعاشه ويتفرغ للطلب بعض الوقت.. اجتهد في استثمار وقت فراغه هذا على أتم ما يكون، مع ابتدار كل فرصة تسنح من مراجعة محفوظ أو سماع في أثناء العمل أو إن تيسرت القراءة والدراسة ونحوها، ومن صدق الله تعالى.. يسر له وفتح به وعليه وله.

من واجبات الطالب في الدرس: تسجيل كل فوائد شيخه على ما قاله وفهمه على وجهه، وبعد الدرس:

١- تحرير ما علقه أثناء الدرس.

٢- مذاكرته وفحصه وتفتيشه.

٣- حفظ نصوصه وتعاريفه وتقاسيمه.

كل شيء بقدر الله تعالى وتوفيقه ومنّه وكرمه، فعنده سبحانه وتعالى خزائن كل شيء ومنها: العلم، فاستمطره بالدعاء واستنزله بالتضرع واستكثر منه بالسؤال من الله تعالى، فإنه إن بارك لك صرفك إلى الاشتغال وصرف عنك الأشغال، وأعانك عليه، ورسخ فيك مقصوده، وزكى همتك وثبت عزيمتك.

وبكل حال فالخير كله في يديه سبحانه وبحمده.

لم يفتح **للنووي** في الطب وفتح له في الشريعة، فترك ما لم يحسنه وأقبل على ما يحسنه، وكذا ينبغي أن يكون طالب العلم، إذا قدر على شيء لزمه وإذا لم يقدر عليه جاوزه إلى ما يقدر عليه.

وفي مأثور الشعر العربي:

إِذا لَم تَستَطِع شَيئاً فَدَعهُ وَجاوِزهُ إِلى ما تَستَطيعُ

طالب العلم ينبغي أن يكون له حال من العبادة والذكر، يفزع إليه في الملمات ويعينه عند الكرب والحاجات، فأقبل على نفسك واعرف داءها وانظر دواءها وشفاءها والزمه، واقتد بالصالحين واطلب من نفسك تحقيق ما تقرؤه عنهم.

يذكر **الحافظ ابن العطار** - رحمه الله تعالى - أن في الفقه: قراءة وتصحيحًا وسماعًا وعرضًا وشرحًا وضبطًا، وأن في الحديث: تصحيحًا وحفظًا وشرحًا وبحثًا وتعليقًا.

وأن ذلك قد قام به هو على شيخه **النووي** في كتب مختصرة وغيرها، في مجالس خاصة أو عامة، وهذه همة يقتدى بها.

تتبعت علاقات الطلاب بشيوخهم في القديم والحديث فوجدت الشيوخ يقرِّبون الطالب ويسمحون له بالقراءة في مجلس خاص به، بعدما يتأكد للشيخ عزمه وإقباله على العلم بهمة وجِدٍّ، بخلاف من لم يجرِّبوه فإنهم لا يجيبونه إلا في النادر عن مشورة أو خبر صادق أو غيرهما.

وهذا شيء واقعي، فإن الطالب الذي يجرَّب في المجالس العامَّة مع بقية الطلاب فيوجد منه العزم والجد حقيق إذا طلب من شيخه أن يخصه بوقت يقرأ فيه عليه أن يكون جادًّا، وأما غيره فقد يضيع الوقت ولا يثبت ومن هنا يرفض الشيوخ في العادة طلبه.

وينبغي على الطالب العناية بمصنفات شيخه في حياته: يقرؤها عليه ضبطًا وإتقانًا، ويسعى في تعميم النفع بها بعد وفاته: نشرًا وتحقيقًا وإتمامًا.

قد يفتح الله جل ثناؤه للطالب في شيخ من شيوخه ويرى الطالب من شيخه هذا ما يكفي طموحه في العلم والتربية، فلو انقطع إليه لم يكن انقطاعه خسارة، وقد انقطع في السلف والخلف جماعات من الطلاب على شيوخهم وتوفروا عليهم توفرًا تامًّا فنفعهم الله بهم غاية النفع.

الشيوخ في العلم آباء في الدين: يقربوننا من الجنة وسبلها ويباعدوننا عن النار وأسبابها.

ومن حق الشيخ على الطالب:

- معرفة منزلته.
- الدعاء له وبره.
- ذكر مآثره والثناء عليه وشكره.

ذكر **الحافظ ابن العطار** - رحمه الله تعالى - في كتابه عن **الإمام النووي** - تحفظ الطالبين - نصين اثنين في اجتماع الناس على علم الإمام وأخلاقه

- النص الأول (ص ٤٠): **"العالم الرباني المتفق على علمه، وإمامته، وجلالته، وزهده، وورعه، وعبادته، وصيانته في أقواله و أفعاله وحالاته".**

- النص الثاني (ص ٦٣): **"وسار علمه وفتاويه في الآفاق، ووقع على دينه وعلمه وزهده وورعه ومعرفته وكرامته الوفاق".**

وهذا الاتفاق والوفاق قد تتابع على نقله وحكايته وإقراره والقول به كل من جاء بعد الحافظ إلى يومنا هذا.

من ملك العلمُ عليه قلبَه وأحبَّه وملأ باله وشغل عقله.. صرف كل جزء من وقته فيه، كان **الإمام النووي** رحمه الله تعالى لا يضيع له وقتًا في ليلٍ ولا نهار؛ إلَّا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى في ذهابه في الطُّرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه، أو مطالعة، وأنه بقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ستِّ سنين.

كان من سبل **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - إلى تحصيل العلم: **التصنيف**، وقد أشار إلى ذلك **العلامة جمال الدين الأسنوي**، حيث قال: "جعل الإمام النووي تصنيفه تحصيلًا، وجعل تحصيله تصنيفًا"، بمعنى أن **الإمام النووي** جعل تأليفه وسيلة للتحصيل وطلب العلم، وجعل طلبه للعلم في صيغة مؤلفات فورًا، أي: أن تقييداته أثناء طلبه للعلم جعلها في صيغة مؤلفات، بدلًا من أن تذهب مقيدات الشباب سدى، وقد كتب الأستاذ السكران مقالة نافعة حول هذه الكلمة يجدر بطالب العلم مطالعتها في كتابه مسلكيات، بعنوان: **"التصنيف التحصيلي".**

جاهد **النووي** الجهل في المسلمين: بالتعلم والتعليم والإشغال والتصنيف والإفادة، وجاهد الجور في ملوك زمانه بالنصيحة لهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهد نفسه وشيطانه وهواه والدنيا بالمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب؛ يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة.

ونفعه الله ونفع به في هذه الميادين وترك أثرًا واضحًا.

من يقرأ سيرة **الإمام النووي** العملية، تلك التي أبرزتها اختياراته من بعد قراءة سيرته العلمية والعملية التي دونها عنه تلامذته وطلابه.. يدرك إلى أي حد كان يعمل على - رحمه الله تعالى - التزام سنة النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من شأن نفسه، ولقد كان في خاصة نفسه يأخذها بدقائق الفقه والاجتهاد على الخروج من خلاف العلماء وإن كان بعيدًا.

يرصد **ابن العطار** ظاهرة في كتب **النووي** رحمه الله تعالى - لشد ما نحتاج إليها في أزمنتنا هذه -، يقول: "وكان - رحمه الله - إذا ذكر الصَّالحينَ.. ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وسوَّدهم، وذكر مناقبهم وكراماتهم".

وهذا كثير، ملموس في كتب **النووي** - عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة -.

لا يستغني الفقيه عن المحدِّث، ولا يستغني المحدِّث عن الفقيه، وإن عملهما في ديننا لمتكاملان، إنْ في حياة السلف الماضِين أو الخلف التالِين أو المحدَثين المعاصرين، وأعظم الفقهاء من جمع الحديث إلى فقهه، وأعظم المحدثين من جمع الفقه إلى حديثه.

العلم: هو معرفة الكتاب والسنة ومعارفهما على النحو الذي عرفهما عليه السلف السابقون بطرق ووسائل وأساليب عصرنا، فيجمع الطالب بين التراث والمعاصرة - لا يغرق في التراث وكأنه يعيش في غير زمانه ولا ينصرم من التراث وكأنه نبتة لا جذور لها ولا أساس.

الفقيه الصالح

- يتعلم الدقائق ويعمل بها.

- ويعرف اختلاف الفقهاء ليخرج منه وإن كان بعيدًا.

- ويعرف الرخص ويتنزه عنها.

- ويعرف طريق الحيل ويجتنبها.

- ويفتي غيره باليسير وحد التقوى ويعمل هو بالورع.

كان النووي رحمه الله تعالى عابدًا يقوم في الصلاة فقنت قنوتًا طويلًا، ويقرأ القرآن فيردد الآية مرات كثيرة، وكان يقرأ بحزن وخشوع وتدبر، توقع قراءته العظة في القلب والتذكرة للنفس.

وقد عرف زهد النووي وورعه وإعراضه عن الدنيا وعدم رغبته في متاعها وإقباله على شأنه.

ويكتفي بالحلال الذي ليس فيه شبهة ويتناول منه القليل الذي تقوم به الحياة ويحصل به الغرض حتى إنه كان يأكل ويشرب مرة واحدة، وكان يتقصد في الطعام القليل الذي يأكله ألا يكون مما يرطب الجسم ويجلب النوم. يتحرى سيرة الصالحين من قبله، ويورد ذلك عنهم ويحدث به ويخبر بخبرهم.

والنووي - رحمه الله تعالى - فقيه محدث مزج معاني فقهه بعبارة أديب ذات لفظة عذبة وعبارة سلسة.

صنف الإمام النووي طيب الله ثراه في فنون عدة، منها:

- **الحديث**، مثل: رياض الصالحين، وعلومه، مثل: التقريب، وشرحه، مثل: شرح صحيح مسلم.

- **والفقه**، متونه مثل: منهاج الطالبين، وشرحه، مثل: المجموع، والفتاوى، مثل: فتاويه، وطبقات أهله، مثل: طبقات الفقهاء.

- **وعلوم القرآن**، مثل: التبيان في آداب حملة القرآن.

وغيرها كثير في السير والتراجم، وقواعد الفقه، وضوابطه، والرقائق، والشمائل النبوية، وقد اشتهرت وامتدحت في حياته من العلماء وقرأها وحفظها ودرسها الطلاب.

لم يأخذ النووي على تعليم العلم أجرة، ولا يقبل ممن له به ارتباط في باب العلم شيئًا.

وله في ذلك مقصدان:

- تأجيل الجزاء وادخار الثواب إلى الآخرة.

- الخروج من عهدة النصوص الناهية عن ذلك.

- وقيل إنه كان يرى التعليم واجبًا متعينًا عليه ونفسه تصبر فلا يحل له أن يأخذ أجرة والحال هذه.

كان النووي رحمه الله تعالى أمارًا بالمعروف نهاء عن المنكر، يصدع بالحق مواجهة وعن طريق الرسائل يكتبها ويرسل بها إلى الحكام الذين لا يقدر على الوصول إليهم، يأمرهم بالعدل في الرعية والرفق بهم والنظر في مصالحهم، ورفع الضرائب عنهم، ولا يروعه أن يأتي جواب رسالته بالتهديد والوعيد،

والإنكار والتوبيخ بل يرد على الجواب، ويبين أحكام الشرع الواجبة على الحكام، ويوضح ما في الجواب الوارد منهم من أخطاء.

أكرم الله تعالى النووي بكرامات في حياته وأخرى بعد وفاته، ومن الكرامات التي أكرمه الله تبارك وتعالى بها بعد وفاته:

أنه جاء في النون إلى عمته لما عزم أقرباؤه على بناء قبة على قبره فقال لها: "قولي لأخي والجماعة لا يفعلوا هذا الذي قد عزموا عليه من البنيان، فإنهم كلما بنوا شيئًا يهدم عليهم" فتركوا ذلك.

ومن جميل ما يذكر من مواقف النووي - رحمه الله تعالى -:

وقوفه في وجه أشباه العلماء في عصره، ممن كان يتزلف إلى السلطان بالباطل ويزين له أذية المسلمين بأخذ أموالهم ومصادرة بساتينهم، زورًا وبهتانًا، فكاتبه رحمه الله تعالى ينكر عليه قوله وفعله ثم لما لم يرتدع مع كثرة البيان وتكراره زجره زجرًا شديدًا، وموعظته في هذا طويلة جزلة فصيحة مليحة.

وقد ذكرها الحافظ ابن العطار وغيره - رحمهم الله تعالى.

المحافظة على السنة ومجانبة البدعة أصل كبير في سيرة الإمام النووي - رحمه الله تعالى -، ومن تأمل كتبه وفتاويه وجد فيها اهتمامًا عظيمًا بالتنبيه على أنواع من البدع كثيرة جدًّا، وقد جمع الشيخ مشهور فصلًا في هذا الجانب وذكر فيه عدة أمثلة في مقدمة تحقيق شرح سنن أبي داود للإمام النووي المسمى: **"الإيجاز في شرح سنن أبي داود السجستاني"**.

ليس المخبر كالمعاين، هذا ما يمكن أن توصف به تراجم الأئمة الذين كتبوا ترجمة **الإمام النووي** رحمه الله تعالى مقارنة بترجمة **الحافظ ابن العطار** له، سواء منهم من أفرد له - مثله - ترجمة مستقلة أو من ترجم له ضمن طبقات أو أعلام.

وأذكر هنا كلمة **ابن العطار**: "وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أمورًا تحتمل مجلدات".

في كل ترجمة إضافة - شريطة أن تكون من إمام مطلع، وعندها لا تغني ترجمة عن ترجمة، وقد وجدت في تأملات **العلامة الأسنوي** - مثلًا - لترجمة **النووي** وتوجيهاته لما ورد فيها ما لم أجد عند غيره ممن كتبوا عنه ترجمة مضمنة في كتاب مع عدة فقهاء مثله أو من كتبوا كتابًا مستقلًّا فيه ذكره وحده.

كان **الإمام النووي** رفع الله درجته في عليين يكنى بـ **(أبو زكريا)** ويلقب بـ **(محي الدين)**.

فأما الكنية فإنه لا زكريا له، لأنه لم يتزوج، وكنية من لم يتزوج أو تزوج ولم ينجب جائزة، فقد كنى النبي ﷺ الصغار.

قال رحمه الله في شرح المهذب: "ويستحب تكنية أهل الفضل من الرجال والنساء سواء كان له ولد أم لا وسواء كني بولده أم بغيره وسواء كني الرجل بأبي فلان أو أبي فلانة وسواء كنيت المرأة بأم فلان أو أم فلانة".

وأما اللقب فقد كان الإمام يكره التلقب به..

- من باب التواضع.

- واجتناب التزكية المنهي عنها في قوله تعالى: {فلا تزكوا أنفسكم}.

- ولأن الدين حي ثابت دائم غير محتاج إلى من يحييه حتى يكون حجة قائمة على من أهمله ونبذه، وبلغ من تشديده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الأمر أنه كان يقول: **"لا أجعل في حل من لقبني محي الدين".**

للشيوخ على طلابهم الذين علموهم وأدبوهم حقوق متكاثرة، ومنها: تعريف الأجيال بهم، ونشر فضائلهم، ونقل طرائقهم وحكاياتهم ليقتدي بهم من بعدهم، فتكون أعمال هؤلاء المقتدين في ميزان أولئك الشيوخ.

مكانة **الإمام النووي** الفقهية مكانة عظيمة، وهو محرر مذهب الشافعية ومهذبه ومحققه ومرتبه، وعلى كتبه المعول في المذهب، ويكفي أنه عندما يقال: اعتمده الشيخان - أي **الرافعي والنووي** - يكون هو معتمد المذهب، **وإذا اختلف قولاهما.. قدم قول النووي.**

للإمام النووي آراء واختيارات معلومة لدى الدارسين خرج بها عن مقرر مذهب الشافعية وصار فيها مجتهدًا مستقلًّا، وهي بالنظر إلى عددها كثيرة، لكن مقارنة بمسائل المذهب الذي يلتزمه - لا ريب – قليلة، وهذه المسائل موزعة على أبواب الطهارة، والصلاة، والصوم، والحج، والمعاملات، وأحكام الأسرة والحدود، والنذور، والذبائح، وقد قام عدة من الباحثين بدراسة هذه المسائل، ومنهم: بحث اختيارات **الإمام النووي** التي تفرد بها من المذهب الشافعي - دراسة مقارنة، تأليف الشيخ سالم بن أحمد بن أبي بكر الخطيب.

لفت نظري في ترجمة بعض الأئمة - رضوان الله عليهم - عناية آبائهم بالحج بهم، مرَّ هذا معنا ونحن نقرأ في **"بهجة الناظرين"** عند الحديث عن السراج البلقيني، وهو ذا يمر بنا ونحن نقرأ في ترجمة **النووي** رحمه الله تعالى.

قال رضي الدين الغزي في ترجمة السراج البلقيني (٧٢٤هـ - ٨٠٥هـ): "وحج بالموسم مع والده سنة أربعين..".

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: "فلما كانت سنة إحدى وخمسين حججت مع والدي وكانت وقفة جمعة وكان رحيلنا من أول رجب"، قال: "فأقمت بمدينة رسول الله ﷺ نحوًا من شهر ونصف..".

كان من عادة النووي رحمه الله تعالى تكرار قراءة الكتاب، نوزع مرة في النقل عن الوسيط فقال: "أتنازعوني وقد طالعته أربعمئة مرة" كما نقل الكمال الأدفوي في البدر السافر.

وهذه همة عالية بلا ريب، وفي الخبر فائدة عظيمة لطالب العلم.

قسم أوقاتك على أعمالك، ولا تترك لك وقتًا من دون عمل يملؤه، كان النووي رحمه الله تعالى يصرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل..

فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

من مفاتح فهم إنجاز الإمام النووي رحمه الله تعالى - وهو إنجاز كبير جدًّا في عمر قصير جدًّا -: **أنه كان يقلل نومه، و أنه كان لا ينشغل عن القراءة بشيء، و أنه كان يقلل الطعام.**

قال الأدفوي في البدر السافر حكى قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة أنه سأله عن نومه؟

فقال: إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه.

قال: وحكى لي أيضًا أنه كان إذا أتى إليه ليزوره يضع بعض الكتب على بعض ليوسع له موضعًا يجلس فيه. قال: وكان لا يجمع بين إدامين ولا يأكل اللحم إلا عندما يتوجه إلى نوى.

اجتمع للنووي ثلاث مراتب: العلم والقيام بوظائفه، الزهد في الدنيا، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن فرح الإشبيلي: كل مرتبة منها لو كانت لشخص لشدت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض.

لما تولى النووي رحمه الله تعالى مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد موت أبي شامة.. أقرأ بها بحثًا وشرحًا:

- صحيح البخاري.

- وصحيح مسلم.

- وقطعة من أبي داود.

- ورسالة القشيري.

- وصفوة الصفوة.

- وشرح معاني الآثار للطحاوي.

- **والحجة على تارك المحجة لنصر المقدسي**، وغير ذلك.

وهذا الكتاب الأخير يجب أن يكون موضع نظر وتأمل وتدقيق:

فإن في اختيار النووي له وتوفره على إقرائه وشرحه - وهو كتاب يتضمن أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة، مع وفرة كتب الكلام في زمنه وشيوعها - لدليلًا قويًّا على ارتباط الإمام رحمه الله تعالى بالسنة في كل شأنه من أول أصول الدين إلى أصغر صغير من أمره.

ولنا مع هذا الكتاب وقفة - بمشيئة الله تعالى -، ومختصره مطبوع في دار أضواء السلف وقد درسه د. محمد إبراهيم محمد هارون، في رسالته للدكتوراه.

لم يستوعب **ابن العطار** ترجمة **النووي** رحمه الله تعالى، ولهذا قال في تحفة الطالبين: "وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أمورًا تحتمل مجلدات".

ولم يستوعب كذلك تصانيفه، ولهذا لما قال **الأسنوي** - عن أحد الكتب التي نسبت **للنووي** -: "ولهذا لم يذكره **ابن العطار** حين عدد تصانيفه واستوعبها".. قال السيوطي في المنهاج السوي: "وقوله إن **ابن العطار** استوعب تصانيفه ممنوع، بل لم يستوعب ولا قارب".

من الشخصيات التي استوقفتني في ترجمة **النووي** رحمه الله تعالى شخصية **الشيخ ياسين بن عبد الله المغربي.**

وهو رجل أسود يعمل بالحجامة، وكان صالحًا، يقول الذهبي: "كان له دكان بظاهر باب الجابية، وكان صاحب كشف وكرامات، وقد حج أكثر من عشرين مرة وبلغ الثمانين، اتفق أنه سنة نيف وأربعين مر بقرية نوى فرأى **الشيخ محيي الدين النواوي** وهو صبي، فتفرس فيه النجابة واجتمع بأبيه الحاج شرف ووصاه به وحرضه على حفظ القرآن والعلم، فكان الشيخ فيما بعد يخرج إليه ويتأدب معه ويزوره ويرجو بركته ويستشيره في أمور".

فتخيل هذه الوصية وهذا الترغيب ما كان أثرهما، فطوبى لمن رأى خيرًا فأيده وشجع عليه وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: **«اعملوا فإنكم على عمل صالح».**

ترجم عليه **النووي** في الأذكار فقال: **"باب دعاء الإنسان لمن صنع معروفًا إليه أو إلى الناس كلهم أو بعضهم، والثناء عليه وتحريضه على ذلك".**

سبحان الله، صلاح الحال وإخلاص القول والعمل ونقاء القلب، يصل عبر السنين في طيب الذكر وعموم النفع، حتى إن المكان يتعطر بذكر الصالحين، وفي المأثور عن سفيان: **عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.**

أشعر بهذا وأنا أقرأ وأتدبر وأسجل خواطر على سيرة النووي رحمه الله تعالى.

إذا قارن العمل العلم، والإصلاح الصلاح، والتعليم التعلم لدى عالم، فقد تفضل الله تبارك وتعالى عليه تفضلًا ووفقه توفيقًا عظيمًا وفتح له فتوحًا، وهذا بين في عطاء النووي رحمه الله تعالى.

صنف الإمام النووي في الفقه وعلومه:

- التحرير في ألفاظ التنبيه.

- العمدة في تصحيح التنبيه.

- الإيضاح في المناسك.

- الإيجاز في المناسك (المناسك الثالث والرابع والخامس والسادس، أحدها خاص بالنسوان).

- مسألة الغنيمة (مسألة تخميس الغنائم).

- الفتاوى.

- القيام (الترخيص بالقيام لذوي الفضل والمزية من أهل الإسلام).

- الروضة في مختصر شرح الرافعي.

- المجموع في شرح المهذب (إلى باب المصراة).

- قطعة في شرح التنبيه.

- قطعة في شرح الوسيط.

- قطعة في الأحكام (خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام).

- قطعة مسوّدة في طبقات الفقهاء (طبقات الشافعية).

- قطعة في التحقيق في الفقه إلى باب صلاة المسافر.

- كتاب المنهاج في مختصر المحرر للرافعي.

- وشرح ألفاظ منه (دقائق المنهاج دقائق شرح المنهاج).

- ابتداء التاريخ في الإسلام ومناقب الشافعي والبخاري.

- الأصول والضوابط.

- دقائق الروضة.

- رؤوس المسائل.

- ما وقع في المهذب من الأوهام.

- تحفو طلاب الفضائل.

- الصلاة.

- مختصر آداب الاستسقاء.

- وجوه الترجيحات في الأحاديث الموهمة التعارض.

- مختصر تأليف الدارمي في المتحيرة.

- المنتخب في مختصر التذنيب.

- مختصر التنبيه.

- مسألة نية الاغتراف.

- مناقب الشافعي.

- مختصر شرح الوجيز.

- مهمات الأحكام.

- مقدمة في الفقه الشافعي.

هذا ما ثبت له رحمه الله تعالى في الفقه وعلومه، والله أعلم.

من الملحوظ في سيرة النووي العلمية في التصنيف والتأليف أنه كان يكتب في مصنفات عديدة في نفس التوقيت، ويفهم هذا من عدم إتمامه الكثير منها، ويفسر هذا بما تقدم من أنه كان قد جعل تصنيفه تحصيله وتحصيله تصنيفه كما أوضح ذلك **الأسنوي**.

وفي هذا عبرة لطالب العلم من جهتين:

- من جهة دافعة: لا بأس أن يشتغل الشيخ أو الطالب بأكثر من شيء من باب تجديد النشاط ودفع الملل بالانتقال بين هذه وهذه.

- من جهة مانعة: ألا يوسع في ذلك حتى لا تنتشر عليه الموضوعات وتتبدد جهوده فيها كلها وتقل أو تندر ثمرتها وتذهب مع الوقت.

لم يتزوج النووي رحمه الله تعالى، هذا الثابت في سيرته ولهذا أدخله من كتب عن العلماء العزاب في مصنفاتهم، وترك الزواج لأسباب كثيرة ذكرها أصحاب هذه المصنفات.

ومما لا ريب فيه أن هذا الإمام رحمه الله تعالى أدرى بالحكم الفقهي المناسب لحاله، وقد قدمنا أنه كان يعمل بدقائق الفقه، فلن يعزب عنه - والحال هذه - أن يبحث شأنه مع المقرر في الشرع، ولن يخالفه في ذلك، وبمثل هذا يعتذر لمن كان قوي الصلة بالشرع علمًا وعملًا.

ساعد التفرغ العلمي النووي - رحمه الله تعالى - على إنجاز المهمات الكبيرة.

وقد نبه على ذلك الأئمة الذين قاموا في بعض أموره من بعده، ومنهم التقي السبكي رحمه الله تعالى لما تعرض لتكملة كتاب المجموع الذي شرحه النووي فلم يتمه بل وقف فيه إلى باب المصرّاة. قال رحمه

الله تعالى: "وقد أسعف بالتأييد وساعدته المقادير، فقربت منه كل بعيد، ولا شك أن ذلك يحتاج بعد الأهلية إلى ثلاثة أشياء:

أحدها: فراغ البال واتساع الزمان.

وقد كان - رحمه الله - قد أوتي من ذلك الحظ الأوفر بحيث لم يكن له شاغل عن ذلك من نفس ولا أهل.

الثاني: جمع الكتب التي استعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء.

وكان - رحمه الله - قد حصل له من ذلك حظ وافر؛ لسهوله ذلك في بلده في ذلك الوقت.

الثالث: حسن النية وكثرة الورع والزهد والأعمال الصالحة التي أشرقت أنوارها.

وكان قد اكتال من ذلك بالمكيال الأوفى، فمن اجتمعت فيه هذه الحالات الثلاث أنى يضاهيه أو يدانيه من ليس فيه واحدة منها؟

وصل **النووي** في شرح المهذب إلى باب المصراة - هذا في قول **ابن العطار** - أو إلى أثناء الربا - وهذا في قول **الأسنوي** -، قال السيوطي: "وقد ذكر في خطبته أنه كتب قبل ذلك شرحًا مبسوطًا جدًّا، وصل فيه إلى أثناء الحيض، في ثلاث مجلدات ضخمات، ثم رأى أن ذلك يكون سبب قلة الانتفاع به لكبره فعدل عنه، ولم يتفق له أنه سمى شيئًا من تصانيفه في الخطبة إلا هذا الشرح".

وقد كان **الإمام النووي** رحمه الله تعالى يشير في أثنائه إلى شعوره أنه يتوفى قبل أن يتمه، فيقول - عند جمع النظائر في موضع -: "فلعلنا لا نصل إلى محله"، وكتب لتلميذه **ابن العطار** ورقة فيها أسماء الكتب التي كان يجمعه منها وقال: "إذا انتقلت إلى الله فأتمه من هذه الكتب".

وقد شرع في تكميله جماعة - أشهرهم السبكي وصل فيه إلى أثناء التفليس - ولم يتموه، وكمل تكملته جماعة أشهرهم الشيخ المطيعي رحم الله الجميع.

في أول كتاب المجموع شرح المهذب مقدمة عظيمة الشأن تكلم فيها **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - عن:

- الإخلاص والصدق وإحضار النية.

- والعلم وأقسامه وأحكامه وفضائله وآدابه.

- والفتوى وما يتعلق بها.

- وفصول من أصول الفقه.

وهي مقدمة جديرة بأن يدرسها كل طالب علم وشيخ، وقد أفردت بالطباعة والتحقيق والدراسة والشرح، وممن شرحها الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - في قريب من ٥٠٠ صفحة مع أنه نبه على أن تناوله لها إنما هو قراءة وتعليق وليس شرحًا وأن الشرح يطول جدًّا.

وضع الله القبول لمصنفات **النووي** في الأرض، ومن تأمل حال الأربعين وانتشارها من بين مئات أو ألوف الكتب المماثلة لها مما سبقها وقارنها ولحقها، وكذا رياض الصالحين الذي لا يخلو منه بيت تقريبًا وشرح صحيح مسلم **"العظيم البركة"** الذي يقدمه كل عالم على شروح مسلم الأخرى في القراءة والدراسة والتدريس، وقل مثل ذلك في عمله الفذ في الفقه الشافعي بين أئمة المذهب وكيف صار واسطة العقد فيهم، وهذا شأنه كل تصانيفه رحمه الله تعالى.

وقع **للإمام النووي** رحمه الله تعالى هنات في كتبه بين مسائل في العقيدة ومسائل في الفقه وغيرها لم تنقص من قدره العظيم عند الأئمة والعلماء في السابقين واللاحقين، وتنبهوا إليها ونبهوا عليها بعلم وأدب، وراعوا اجتهاده رحمه الله تعالى فيها وأنها لا تعدو أن تكون من باب ما أصاب فيه أجرًا واحدًا.

على أنه قد وقع تضخيم وتهويل في بعض هذه المسائل مما كان ينبغي أن لا يلتفت إليه أو تصرف العناية إليه، غير أن الجهل سيد الموقف وما عسى أن يفعل العلماء مع الجهال؟!

ليس التنبيه على أخطاء إمام أو عالم من قبيل إسقاطه كما قد يتوهم، شريطة أن يتم ذلك بإنصاف من علم وأدب، فمن نبه على أخطاء إمام أو عالم لم يكن معنى ذلك القدح فيه، كما أن الثناء على إمام أو عالم لا يعني القبول بكل ما قاله، فمن أثنى على إمام أو عالم لم يكن معنى ثنائه تصحيح كل أقواله.

وقد علمنا أولئك الأئمة الذين نثني عليهم وننبه على ما قد يكون من أخطائهم ذلك بأقوالهم وأفعالهم، فنقلوا إلينا ونبهوا علينا بضرورة رعاية جانب الدين وأن ننبه على الوهم والخطأ والسهو والنسيان والزلل فيه ونقلوا إلينا أن كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكذا فعلوا هم رضوان الله عليهم.

هذا منهاج أهل الحق والعدل والوسط، بلا إفراط ولا تفريط ولا حيف ولا شطط، فمن التزمه أصاب ومن حاد عنه وقع في الغلط.

وقعت مصنفات **الإمام النووي** رحمه الله تعالى موقع الرضا ووضعت موضع العناية من الأئمة من شيوخه وزملائه وتلامذته ومن جاءوا بعده إلى يومنا هذا.

هذا في مصنفاته في الفقه والحديث وعلومه وغيرها، ومن تتبعها وجد أعمال الأئمة والعلماء عليها كثيرة بين شرح واختصار وتحشية وتعليق وتحقيق وتخريج ونظم.. إلخ ذلك من أنواع المدارسة.

وكتابه المنهاج في الفقه الشافعي وحده عليه فوق مئة عمل، وكذا كتابه الأربعون في مباني الإسلام وقواعد الأحكام مثله.

من الأسباب التي فسر بها العلماء حجم الإنجاز الذي وقع للنووي رحمه الله تعالى: **سرعته في التصنيف**، وقد ضرب الإمام الأذرعي لذلك مثلًا فقال: كان النووي رحمه الله تعالى في التصنيف كالسائق المجد، حتى قيل: إن تصنيفه بلغ في كل يوم كراستين أو أكثر.

فهو كما قال القائل:

وطويل باع الهم قد قعدت

له غرماؤه رصدًا بكل طريق

فإذا ونى أذكرته قصر المدى

ورضى السبوق وخجلة المسبوق

قال: وكان كالجواد المسرع في ميدانه، ولقد حكي عنه أنه كان يكتب حتى تكل يده فتعجزه حتى يضع القلم وينشد:

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة

على غير سعدى فهو دمع مضيع

وهذا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من باب قول الله تعالى: **{والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}.**

كل من تعلم على كتب عالم أو حضر دروسه فلهذا العالم في رقبته جميل وله عليه يد ومنة.

قال الأذرعي عن النووي - رحمهما الله تعالى -: "فإنه من أمنّ الأصحاب عليّ في سلوك المذهب، فمن كتبه تفقهت وبكلامه تبصرت وفي منهاجه سلكت وبدعائه انتفعت".

وليس الرد على العالم وتبيين خطئه خلاف الأدب بل هو من النصيحة له وللمسلمين وإفادة المتعلمين والمقتدين به، والعلماء من أحرص الناس على ذلك وقد بذلوا وسعهم فيه.

من طريقة **الإمام النووي** رحمه الله تعالى في التصنيف: جعل كتاب من كتب الأئمة قبله كتابًا وجمع بقية ما توصل إليه أو وقع بين يديه علي هذا الكتاب ومنها فوائده ومناقشاته وتصحيحاته واختياراته وترجيحاته، وإلى مثل هذا يشير ابن كثير في وصف شرح صحيح مسلم فيقول: "جمع فيه شروحات من تقدم من المغاربة وغيرهم وزاد ونقص". ومثل هذا ما وقع منه في الأربعين في مباني الإسلام وقواعد الأحكام فإنه اعتمد فيه على جمع عمله **ابن الصلاح** قبله وزاد عليه حتى تم - رضي الله عنهم أجمعين -.

وقفت في كلام **اليونيني** على قوله: "والذي أظهره وقدمه على أقرانه ومن هو أفقه منه: كثرة زهده في الدنيا، وعظم ديانته، وورعه، وليس فيمن اشتغل عليه من يلتحق به" يقول إن الله رفع **النووي** بهذه الأسباب وسدد له بها من علمه ما قصر فيه عن رتبة الأصحاب. وهو كذلك - والله - يخفض الله بالتقوى والصلاح أقوامًا ويخفض بانعدامها آخرين، فليست شيئًا بمعزل عن العلم يا طلاب العلم، وقد قال ربنا جل ثناؤه: **{يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا..}.**

من العادات التي ذكروها عن **النووي** رحمه الله تعالى:

- إذا تكلم افتتح كلامه بالحمد لله والثناء عليه.

- وإذا ذكر النبي ﷺ رفع صوته بالصلاة عليه.

- وكذا إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام وسودهم وذكر مناقبهم وكراماتهم واكتسب من أحوالهم.

في ترتيب الكتب الثلاثة في ترجمة النووي رحمه الله تعالى: تحفة الطالبين لابن العطار، والمنهل العذب الروي للسخاوي، والمنهاج السوي للسيوطي:

أصغرها تحفة الطالبين، وأوسعها المنهل، وبينهما المنهاج.

واعتمادهم كلهم على التحفة ثم يزيدون زيادات.

زاد الذهبي في تاريخ الإسلام أشياء في ترجمة النووي حكاها عن الحافظ ابن العطار وليست في تحفة الطالبين لابن العطار، وهذا مما حدثه به ابن العطار مشافهة وكان ابن العطار أخا الذهبي الأكبر لأمه من الرضاعة.

كان ابن العطار يأخذ على شيخه في الدرس، فقيل له في ذلك فقال: **"لا تسقط الثمرة من الشجرة إلا بهز الأفنان أو التقطف بالبنان"** وهذه من الكلمات العذبة النافعة ذكرها ابن هداية الله في كتاب طبقات الشافعية في ترجمة ابن العطار.

كتب الإمام النووي رحمه الله تعالى في السنة وعلومها:

هذه كتب الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في السنة وعلومها، جمعتها من كتب: ابن العطار، والسخاوي، والسيوطي، وغيرهم، مع تحقيقات محققيها، ولعله لا يكون له بعدها كتاب في السنة وعلومها لم يذكر فيها - إن شاء الله تعالى -:

أولًا: كتب السنة:

١- جامع السنة.

٢- أمالي الحديث.

٣- الأربعون النووية.

٤- شرح صحيح مسلم - كامل.

٥- شرح صحيح البخاري.

٦- شرح سنن أبي داود.

٧- الخلاصة في أحاديث الأحكام.

٨- الأذكار - كامل.

٩- رياض الصالحين - كامل.

١٠- إملاء على حديث: «إنما الأعمال بالنيات».

١١- جزء مشتمل على أحاديث رباعيات - يظهر أنه كامل.

١٢- مختصر الترمذي.

١٣- رسالة في الشمائل المحمدية - يظهر أنه كامل.

ثانيًا: علومها:

١٤- الإرشاد، مختصر من مقدمة ابن الصلاح - كامل.

١٥- والتقريب والتيسير، وهو مختصر الإرشاد - كامل.

١٦- الإشارات إلى بيان الأسماء المبهمات، اختصر فيه: "الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة"، للخطيب البغدادي - كامل.

١٧- أجوبة عن أحاديث سئل عنها.

١٨- رءوس المسائل وتحفة طلاب الفضائل - كامل، ومنه جزء في الحديث.

١٩- وجوه الترجيحات في الأحاديث الموهمة التعارض، التقطه من الناسخ والمنسوخ للحازمي - يظهر أنه كامل.

٢٠- المنتخب من كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، لابن نقطة - يظهر أنه كامل.

رحم الله **النووي** رحمة واسعة ورضي عنه، آمين!

فضل **الإمام النووي** على الأمة والفقه الإسلامي - والفقه الشافعي منه خاصة - كبير.

وهذا الفضل ذو جهات عديدة، منها: أن عادة المتقدمين قد جرت بالسكوت على ما أوردوه من الأحاديث في تصانيفهم من غير بيان لمن اخرج ذلك الحديث من أئمة الحديث - كما يقول الحافظ العراقي رحمه الله تعالى -، ومن غير بيان للصحيح من الضعيف إلا نادرًا، وإن كان من أئمة الحديث، ولكنهم مشوا على عادة من تقدمهم من الفقهاء، حتى جاء **الشيخ محي الدين النووي** فصار يسند في تصانيفه الفقهية الكلام على الحديث وبيان من خرجه وبيان صحته من ضعفه. قال الحافظ العراقي: وهذا أمر مهم مفيد فجزاه الله خيرًا.

اجتمعت كلمة أهل العلم والفضل على أثر الحلال في تنشئة العيال وتربيتهم وصلاح حالهم وإشراق مستقبلهم.

ومما وقفت عليه في هذا الصدد بشأن **الإمام النووي** - رحمه الله تعالى - ما سطره **اليونيني** في ذيل مرآة الزمان عن ذلك بقوله عن الشيخ شرف ابن مري والد **إمامنا النووي**: "كان من الصالحين، مقتنعًا بالحلال، يزرع له أرضًا يقتات منها هو وأهله".

قال: "وكان يمون **الشيخ محي الدين** - رحمهما الله - منها، يرسل له مؤنته وقتًا بوقت، ولا يأكل من عند غير أبيه؛ لما يعلمه من صلاحه واستعماله الحلال الخالص".

قال: "وكان خيرًا لا يأكل شيئًا فيه شبهة ولا يطعم أولاده إلا مما يعرف حله".

نعم الطالب مع شيخه!

شرح **الحافظ علاء الدين ابن العطار** كتاب "الأربعين النووية" الذي صنفه **شيخه الإمام محيي الدين**.. لماذا؟ ما هو دافعه!

رأى أن شيخه كان عازمًا على شرحه، ولكن المنية اخترمته، فقام **ابن العطار** بشرحه في كتاب لطيف المبنى والمعنى، يعني أراد أن يحقق أمنية شيخه، وهذا اللطف في المبنى والمعنى من أين يأتي به؟ ما هي مادة كتابه؟

حاول أن يجمع في شرح الكتاب كل ما كان منثورًا من كلام شيخه في مصنفاته الأخرى، حتى تم له شرح الكتاب بكلام النووي عدا القليل الذي لم يجده، فقام هو بشرحه شرحًا موجزًا جامعًا، حذا فيه حذو شيخه، ومضى فيه على طريقته، فكأن النووي هو من شرح الكتاب لفظًا ومعنى بدنًا وروحًا.

فماذا نقول عن هذا النوع من الوفاء، أية كلمات يمكن أن ننظم منها جملة في وصف صنيع ابن العطار؟

وسبحان الله **ابن العطار (الطالب)** هو ثمرة غرس **النووي (الشيخ)** فحقًّا من زرع حصد.

أصلان مهمان في حياة طالب العلم

- الإعراض عن الواهيات والمنكرات.

- عدم الالتفات إلى الأسئلة الضعيفة الواردة على الأدلة والأقوال الصحيحة.

نبه على الأول **الإمام النووي** رحمه الله تعالى في مقدمة المجموع

وأسس للثاني في تطبيقاته داخل الكتاب.

وفي هذين الأصلين فوائد كثيرة، من أهمها:

- الحفاظ على الأوقات.

- جمع العزم على المهمات

التحقيق

من كتب الفقه النفيسة: كتاب التحقيق للإمام النووي رحمه الله، وإذا كانت كتب النووي لها موضعها الخاص من كتب المذهب، فإن كتاب التحقيق خاصّة يأتي على رأس هذه الكتب، لأنه آخر ما ألف النووي، وقد أودعه خلاصة فقهه وترجيحاته، حتى إنّ ترجيحات النووي فيه تقدّم على ما في سائر كتبه، كالرّوضة والمنهاج وشرح المهذّب وغيرها..

ولم يتم النووي رحمه الله كتاب التحقيق؛ إذ توفي قبل أن يصل إلى آخره، فما كتبه منه وهو هو ما وصلنا بالفعل إلى صلاة المسافر، فقط. وضمن النووي التحقيق: مسائل وضوابط وقواعد مفردات على سبيل الاختصار، لم يضمنها كتابًا من كتبه، وهو كتاب مختصر، سبيله سبيل المنهاج تقريبًا.

وكان هذا الكتاب موضع اهتمام المصنفين والمؤلفين فنقلوا عنه كثيرًا واهتموا بترجيحاته، والتحقيق منشور، محقق، متوفّر على الشبكة، حققه الشيخان: عادل عبد الموجود، وعلي معوّض، ونشرته دار الجيل – بيروت، في مجلد ٣١٠ ص.

لما ذكر السخاوي شرح صحيح مسلم للإمام النووي رحمه الله تعالى قال: **"وهو عظيم البركة".**

ومما يلمس من بركته: شيوعه وانتشاره وعموم النفع به من بين شروح صحيح مسلم التي تعد بالعشرات وأكثر، وقد نقل بعض تلامذة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى أنه قرأ هذا الشرح ستًّا وعشرين مرة.

من معالم الربانية في حياة الإمام النووي رحمه الله تعالى:

- خشوعه في الصلاة.

- كثرة تلاوة القرآن.

- المداومة على الذكر.

- وقاره.

- الإعراض عن الدنيا.

- الإقبال على شأنه.

- الاهتمام بأمر الآخرة.

- حمل هم تعليم المسلمين ونصحهم.

- شدة رعايته لوقته.

- حرصه على الحلال.

- الزهد والتقلل.

من الظواهر الطيبة في حياة العلماء: التكامل العلمي بين الشيوخ و أقرانهم وطلابهم على النحو التالي..

- صنف الإمام النووي - رحمه الله تعالى - شرحًا على سنن أبي داود وصل فيه إلى سنن الوضوء، سماه: الإيجاز. فلما مات عنه يقول السخاوي: "وسمعت أن زاهد عصره الشهاب ابن رسلان أودعها - هذه القطعة من الشرح - يومها في شرحه الذي كتبه على السنن وبنى عليه".

- صنف الإمام النووي - رحمه الله تعالى - طبقات الشافعية، ومات عنها مسودة، فبيضها بعده تلميذه الحافظ الجمال المزي - رحمة الله عليه -.

وكذلك فعل الحافظ المزي في كتاب شيخه النووي: "تهذيب الأسماء واللغات" الواقعة في مختصر المزني، والوسيط والوجيز للغزالي، والتنبيه والمهذب والروضة.

بيّض تهذيب الأسماء واللغات فإن النووي مات عنه مسودة.

- صنف الإمام النووي - رحمه الله تعالى - كتاب "الأربعون في مباني الإسلام وقواعد الأحكام" المعروف بالأربعين النووية وتمنى أن تسنح له الفرصة ليشرحها، لكنه مات قبل ذلك، فقام ابن العطار رحمه الله تعالى بشرحها تلبية لرغبة شيخه وشرحها من خلال كتب شيخه.

صنّف **الحافظ ابن الصلاح** "طبقات الشافعية" وفاتت عليه أشياء، ثم اختصر كتابه النووي، وزاد عليه أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، وفاتت عليه هو الآخر أشياء، واستدرك عليهما ابن كثير في كتابه طبقات الشافعية، وفاتت عليه هو الثالث أسماء كثيرة، وهكذا العلم بحر واسع لن يحيط به أحد، فهون عليك، واعلم أن التكامل أبقى وأنقى وأتقى، وأن التناحر مهلكة.

حسرات العلماء وتأسفهم على أشياء غير حسرات غيرهم وتأسفهم، وهذا جانب من جوانب تأسفهم:

صنّف الإمام النووي - طيّب الله ثراه - كتاب المجموع شرح المهذب، ووصل فيه إلى باب المُصَرّاة - أو الرِّبا -، وكان يشعر - رحمه الله تعالى- بأن الأجل قريب وأنه سوف يحال بينه وبين إتمامه، فجهز ورقة لتلميذه ابن العطار، فيها تعيين مواده في تصنيفه، وقال له: "إذا انتقلت بالوفاة إلى رحمة الله تعالى فأتممه منها". يقول ابن العطار: "فلم يقدر لي ذلك".

وعلق السخاوي على ذلك بقوله: "وليته ذكر أسماءها لمن بعده، وإن كان يعلم تعينها من الشرح، لكن كان ذاك أسهل وأضبط".

أهل العلم ينظر بعضهم إلى بعض نظرة التكامل والتعاون والتكاتف، ويبني بعضهم عمله على عمل المتقدم عليه، ويكمل منه النقص الذي يقف عليه.

لما شرع **ابن الرفعة** رحمه الله تعالى في تصنيف كتاب يشرح فيه الوسيط بدأ من ربع البيع، فقد جعل عمله ذلك تتميمًا لمن سبقه، وأنه إذا انتهى من الكتاب.. استأنف الربع الأول.

قال: "فإن حصل المطلوب.. فبفضل الله ومنه، وإن عاق عنه عائق فيغني عنه إن شاء الله ما تقدمت الإشارة إليه من كلام الغير فإنه قريب منه أو موافق.

قال السخاوي: "وكأنه رحمه الله تعالى عنى الشيخ - **النووي** - نفعنا الله ببركته وهي في جزأين.

ينبغي على المفتي الذي يجيب في المسائل والمعلم الذي يدرِّس الكتب أن يمر على كتاب كامل من كتب الفقه كل حين يستذكر به الفروع؛ ليكون جوابه موافقًا لكلام الفقهاء مع المراجعة لما يقف عليه من المسائل في وقت الجواب.

ذكر السخاوي في المنهل العذب الروي عن ابن الملقن قوله: "كان بعض الأشياخ يدرِّس الوسيط كل عام مرة، ولا يتعرَّض لفرع زائد، ويقول: إنه يقبح لمن يتصدى للإفتاء والتدريس أن يكون عهده بباب من أبواب الفقه أكثر من عام".

من العجائب: أن يعرض بعض أهل العلم عن العالم في حياته - لسبب من الأسباب أو ذريعة من الذرائع - ثم يقبل على مؤلفاته بعد وفاته.

سرد السخاوي كتب **النووي** كتابًا كتابًا مع قصة أو تنبيه أو ترتيب يخص كل كتاب، ثم قال في آخر ذلك: "فهذه نحو من خمسين تصنيفًا، كل ذلك - كما قال الكمال الأدفوي - في زمن يسير وعمر قصير، وعم النفع بتصانيفه، وانتشر في الأقطار ذكرها وأكب على تحصيلها، حتى رأيت من كان يشنؤها في حياته مجهدًا في تحصيلها والانتفاع بها بعد مماته".

ومثل ذلك ما ذكره أهل السير عن إمام النحاة سيبويه وما فعله معه الكوفيون في الحياة ومع كتبه بعد الوفاة، راجع مقدمة الكتاب بقلم الأستاذ الكبير عبد السلام هارون رحمه الله تعالى.

كتاب المجموع شرح المهذب للإمام النووي - رحمه الله تعالى - من الكتب التي يجدر بطالب الفقه أن يصرف العناية إليها، وقد تعددت عبارات العلماء في مدح هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك:

- **الذهبي:** هو في غاية الحسن والجمال.

- **ابن كثير:** لو كمل لم يكن له نظير في بابه فإنه أبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاد وحرر الفقه في المذهب وغيره والحديث على ما ينبغي واللغة العربية وأشياء مهمة لا أعرف في كتب الفقه أحسن منه.. على أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة تزاد عليه وتضاف إليه.

- **الأسنوي و ابن الملقن:** وليته أكمله وانخرمت باقي كتبه وبه عرف قدره.

- **السخاوي:** لم يصنف في المذهب على مثل أسلوبه.

وكتاب يقال فيه هذا من أولئك الكبار صرف العناية إليه واجب وجمع الهمة على جرده ودراسته متحتم.

من الظواهر العجيبة في تاريخ العلم عندنا - نحن المسلمين -: ما كان يقوم به بعض الأئمة والعلماء من دفن كتبهم وإحراقها وإغراقها وغسلها، وقد وقع ذلك لجماعات كثيرة من الأئمة والعلماء.

وأغراضهم في ذلك متباينة، ومنها: خشية أن يزاد فيها أو ينقص ويستغل ذلك في تحريف الدين، ومنها: الاستغناء بالموجود عنها كما فعل كعب مع نسخته من التوراة - إن صح هذا -، ومنها: شدة ورع وخوف رياء، ومنها: كثرة أغلاط وخوف أن يحمل عنه الخطأ الموجود فيها مع اتفاق عدم تحرير وعسر مراجعة لضيق الوقت وهجوم الأشغال، وغير ذلك من الأسباب. وقد وقع لإمامنا النووي هذا الأمر في كثير من تراثه بعضه غسله بالفعل والبعض الآخر هم بفعل ذلك فيه فلم يتم له مراده.

يقول **ابن العطار** في تحفة الطالبين: ولقد أمرني مرة ببيع كراريس نحو ألف كراس بخطه، وأمرني بأن أقف على غسلها في الوراقة، وخوفني إن خالفت أمره في ذلك، فما أمكنني إلا طاعته، وإلى الآن في قلبي منها حسرات".

وقال **ابن الرفعة:** "ولقد حكي عنه - رحمه الله تعالى - أنه همَّ قبل وفاته بقليل بغسل الروضة كما غسل نحو ألف كراسة من تعليقاته، فقيل له: قد سارت بها الركبان، فقال: في نفسي منها أشياء - أو كما قال -، ولم تتفق له مراجعتها وتحريرها بل هجمت عليه المنية قبل إدراك الخمسين فرضي الله عنه وعن جميع عباده الصالحين".

وهذه الظاهرة تحتاج إلى تفصيل وتفتيش وبحث وتدقيق أكثر من هذا فليكن لها موضع أليق بها من هذا الموضع، والله ولي التوفق.

ما منح والد ولده منحة خيرًا ولا أفضل من العلم، **بالعلم ترفع عماد البيوت ويؤصل النسب ويؤسس الحسب ويمد الشرف.**

هذا **النووي** رحمه الله تعالى لم يذكر العلماء عن بيته وأسرته نسبًا ولا غنى ولم يذكروا عن بلده شهرة ولا منزلة، لكنهم جميعًا ارتفعوا به وعزوا وشرفوا، فلينتبه من يحرص على جمع المال ومصاهرة ذوي الأنساب وشراء الألقاب إلى هذه الحقيقة التي ليس فيها من شك ولا ارتياب.

لما توفي **النووي** رحمه الله تعالى لم يأخذ والده كتبه التي كان يذاكر فيها ومصنفاته التي كان صنفها وهي ثروة عظيمة.

أبقاها عند بعض تلامذة **النووي** وهو البرهان السكندري، فكان العلماء والطلاب ينتفعون بها ونفع الله بها خلقًا كثيرًا وانتشرت، وهذا توفيق وذكاء فوق أنه زهد وورع وطهر قلب ونقاء.

عُرفت للإمام النووي رحمه الله تعالى كرامات كثيرة في صغره وشبابه وكهولته، ومنامات رآها هو ورؤيت له، وهي تدل على صلاحه وتقوله وعمارة باطنه وظاهره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، ومن تلك الكرامات ما يثبته السند العلمي ومنها ما ينفيه أو يتشكك فيه لكن أصلها حاصل له رحمه الله تعالى وغفر له.

نشأ النووي على حب القرآن وتجنب اللعب، فكان يقبل على القراءة والحفظ ولا يشاركه أقرانه في اللعب، وربما دعوه إلى ذلك وضيقوا عليه من أجل أن يشاركهم فكان يأبى ويفر، وربما بكى لحبه ما يطلب وإصرارهم على صرفه عنه وفراره مما يرغبون فيه وإصرارهم على غصبه عليه.

وقد وفق للنووي في صغره: بيئة هادئة ووالد تقي وشيخ محب ووصية رجل صالح تقي ذلك الشيخ الذي وصى شيخه عليه فحكى الشيخ الوصية لوالده فحرص عليها الوالد، مع أحوال وهدايات وتوفيق شمله الله وحاطه به، كانت كلها سببًا في بلوغه تلك المنازل التي بلغها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. يقول **القطب اليونيني**: "كان كثير التلاوة للقرآن العزيز والذكر لله تعالى، معرضًا عن الدنيا مقبلًا على الآخرة من حال ترعرعه".

لو أردت أن نجمل الأسباب المادية التي بلغت بالنووي هذا الذي بلغه من العلم، فإني أشير إلى:

١- البيئة الصالحة والأب الزكي التقي الذكي الحريص.

٢- الجد والعزيمة في تحصيل العلم عن طريق: الرحلة، والشيوخ، والكتب، والمذاكرة، والحفظ، والتصنيف، والتعليم والتدريس.

وهذه أسباب متيسرة لكل طالب علم غالبًا في كل زمان ومكان.

الرحلة في طلب العلم أحد العوامل الرئيسة في تكوين طالب العلم وتأصيله.

وقد أخذ النووي في بلده القرآن الكريم - ولعله أخذ فيها ما هو زيادة على ذلك من مبادئ العلوم مما كانت كل بليدة وقرية تعمر به يومئذ - ثم شد عصا الترحال إلى عاصمة العلم والعلماء: دمشق.

وهناك التقى بشيوخ العلم الكبار والتحق بالمدارس العديدة وصحب طلاب العلم والأقران، وشهدت تلك المرابع نبوغه الذي تحكي عنه الدنيا إلى اليوم، فلا بد لطالب العلم من رحلة إلى الأخيار والمهرة من العلماء والشيوخ ليزداد علمه ويتسع أفقه فإن لقاء العلماء لا عدل له.

لا بد لطالب العلم من مال يبلغه حاجاته ويكفيه ذل السؤال من غيره.

وهذا المال يأتي أحيانًا من عطاء والد، أو كفالة كافل، أو عمل يباشره الطالب والشيخ بيده يعف به نفسه ويتمم به هدفه.

وقد وقعت للنووي رحمه الله تعالى لما دخل دمشق وجلس في حلقة شيخه ابن الفركاح حاجة وشدة كادت ترده عن هذا السبيل وتصده إلى أن أوى إلى مدرسة تكفل لطلابها القوت والسكن، وهناك ابتدأت رحلة النووي في الطلب من تلك الغرفة الصغيرة المساحة العجيبة الحال المليئة بالكتب حتى لا يكاد يوجد فيها مكان لقدم إنسان أو جلوسه، **وهنا نهمس في أذن طلاب العلم الذين يبتغون التفرغ العلمي التام ألا يتعجلوا ذلك وأن يمهدوا أنفسهم له من ناحيتين:**

- المادة التي تكفي الحاجيات الأساسية.

- والنفس التي تقبل على العلم وتنهض بأعبائه وتصبر على تكاليفه وتعطيه حقه ومستحقه بلا كلل أو ملل.

من فضل الله ونعمته على الحدث: أن يوفق في بداية أمره إلى شيخ عالم صالح يمنحه مع العلم الأدب ويعطيه مع المعرفة التربية، ويكون له في نظره إليه فائدة كما في الاستماع إليه سواء بسواء.

وقد توفر للنووي رحمه الله تعالى في المدرسة الرواحية التي سكنها من أول أمره وبقي بها إلى يوم موته شيخ على هذا النحو الكريم الذي وصفناه، كان شيخ المدرسة وقتها **الشيخ كمال الدين إسحاق المغربي**، وهو شيخ متفق على علمه وزهده وورعه وكثرة عبادته وعظيم فضله وتميزه في ذلك على أشكالها.

الكتب في حياة طالب العلم ضرورة من الضرورات، غير أن قدرها ونوعها وترتيبها وكيفية الاستفادة منها يحتاج من طالب العلم إلى ذكاء.

وقد مُدح النووي رحمه الله تعالى بكثرة الكتب التي توفرت له. ذكر ذلك التقي السبكي كما مر معنا من كلامه على تكملة شرح المهذب، وذكروا ذلك في الكتب التي كانت تملأ غرفته فلا يجد الزائر مكانًا يجلس عنده فيه، وذكروا ذلك عند وفاته لما زهد فيها والده وتركها لطلاب العلم يستعيرونها وينتفعون بها عند تلاميذ النووي، وذكر هو ذلك في مقدمة كتاب التحقيق لما ذكر أن عنده مئة كتاب من كتب المذهب.

وقد كان طريق تحصيله رحمه الله تعالى لهذه الكتب: الشراء والنسخ. فمن توفر له مثل هذه الكتب وقدر على توظيفها على النحو الأمثل كانت له خيرًا وفتحًا وبركة، وأما الكثرة والقلة فلا تمدح لذاته أو تذم.

نوع الله جل ثناؤه لنا سبل العلم، بين ما نقرؤه وما نسمعه.

وذلك أنواع: ما نعلمه وما نحفظه. وذلك أنواع، ما نتلقاه وما نستنبطه.

وذلك - أيضًا- أنواع، ولهذا كان فينا أذن وعين وقلب.

وينبغي أن يستفيد طالب العلم من هذه السبل كلها، فيجعل له محفوظًا يحفظه، ومقروءًا يطالعه، وكتبًا يدرسها، فإنه ينتفع ويحصل بهذه الثلاثة ما لا يحصله هو أو غيره إذا اقتصر على شيء منها.

وفي سيرة النووي - رحمه الله تعالى - ذكر انتفاعه وارتفاعه بهذه كلها، فقد ذكروا له مسموعات وذكروا له مطالعات، كما ذكروا له محفوظات ومدارسات ومناقشات.

برع الإمام النووي رحمه الله تعالى في الفقه والحديث كما تشهد بهذا سيرته ومصنفاته ومعاصروه ومن تلاهم، وقد قدمت لك فكرة عن الكتب التي صنفها في كل منهما وما أكثرها وأعظمها.

وهناك أمران آخران كان زمانه قد اشتغل بهما غاية الاشتغال وفتن بهما أعظم الفتنة، ألا وهما:

- الكلام.

- والتصوف.

ومن ينظر في سيرة وعطاء النووي ونظر في عصره وعطاء أهل هذا العصر وما كانوا يشتغلون به من هذين الأمرين - الكلام والتصوف - يدرك إلى أية مرحلة استطاع النووي باعتصامه بالعبادة والتأله من جهة والعلم بالسنة والتحقق به من جهة أن ينجو من كثير من المزالق التي لم يسلم منها كثير غيره في عصره والعصر الذي جاء بعده وربما زيادة، وتلك نظرة لو استطعنا أن ندققها ونحققها لعددنا تلك الهنات التي يأخذها البعض على الإمام حسنات وقربات.

ومثل الأسباب المادية وتوفرها على أتم ما يكون في حياة النووي توفرت له الأسباب المعنوية من حيث:

- قوة الصلة بالله عز وجل من عبادة وزهد وورع ووقار وتواضع.

- وقوة النفس التي أعانته على تحري الحلال الخالص.

- وحفظ الوقت وقلة الخلطة وجمع الهم والعزم على الهدف والجد والاجتهاد في تحقيقه.

وبهذه الأسباب وتلك يبلغ المرء من العلياء والرفعة ما طلب وأمل.

"أخاف أن آتي بسنة وأرتكب محظورات كثيرة".

هكذا أجاب النووي رحمه الله تعالى عندما عوتب في عدم التزوج وقيل له: "هو سنة كبيرة، ولم يبق عليك من السنة إلا هو، وكلك محاسن". كما ينقل ذلك لنا اليافعي في نشر المحاسن الغالية.

كأن ورعه رحمه الله تعالى جعله يقايس بين محاسن الزواج وعدمه أو مساويهما ومنافعهما أو مضارهما، فآثر عدم الزواج خشية التقصير في واجباته فيرتكب ما هو أشد خطرًا مع قدرته على حاله في عدم الزواج وملكه لأربه، وهو من قبل ومن بعد إمام فقيه يدرك حكم نفسه وما هو أولى وأقرب من حاليها هاتين إلى ربه سبحانه جل ذكره.

أما وقد بلغت هذه الفوائد العدد مئة فإني أمسك القلم

وذلك رغبة في الانتقال بالقارئ الكريم إلى حديقة أخرى من حدائق الإسلام الغناء، مع صحابي أو طبقة أو إمام أو علم من العلوم أو مسألة من المسائل، وليس رغبة عن سيرة الإمام النووي التي تمتلئ بالدروس التي لا تمل ولا تسأم والفوائد التي لا تعد ولا تحصى.

وقبل أن أختم هذه الفوائد المهمة أحب أن أشير إلى ثلاث فوائد ضرورية إشارة مختصرة سريعة، وهي:

- وقفت في سيرة الإمام النووي رحمه الله تعالى على الألقاب التي لقبه بها الأئمة والعلماء والصفات التي مدحوه بها، فإذا هي تزيد على مئة، الواحد منها بثقل جبل لا يقوم له أهل العصر الحالي لو اجتمعوا.

- سيرة الإمام النووي رحمه الله تعالى سيرة عالم رباني جمع بين العلم والعمل، وصفاته الباطنة أعظم من صفاته الظاهرة، وفوائد هذه السيرة يحتاج إليها طالب العلم وسالك طريق التعبد، ولا بد لهما من تأملها، وهي سيرة عظيمة واسعة ماتعة تحتاج إلى من يدبجها بقلم أديب، وينسجها نسج قصة تغري بالقدوة والأسوة وتقدم إلى شبابنا وفتياتنا من خلالها فكرة لينهجوا نهج صاحبها ورائدها ويسيروا على منواله.

- فقه **الإمام النووي** رحمه الله تعالى موزع بين كتب كثيرة جدًّا، منها كتب حديث وكتب فقه وكتب رقاق وغيرها.

وهذه الكتب منها الصغير ومنها الكبير، ومنها المتقدم في حياته والمتأخر، ومنه المكتمل والناقص، ومنه المحقق ومنه غيره.

وجميل هذا السيد العظيم على الأمة الإسلامية عامة وعلى فقهاء مذهبه خاصة يوجب عليهم أن يسعوا في جمع فقهه هذا وترتيبه وتحقيقه فيما يشبه أن يسمى بعد اكتماله: **"الموسوعة الفقهية للإمام النووي رحمه الله تعالى"**.

والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.